الرِّسالة القبرُصيّة

لشيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨

بتقديم وتحقيق

علي السيد صبح المدني

عفا الله عنه

١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

مكتبة المدني ومطبعتها

بجدة سوق الندى ت ٢٢٣٦٢٠ ، ٢

مطبعة المدني
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت ٩٢٦٨٥١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

[سبحان ربك رب العزّة عما يصفون .

وسلام على المرسلين .

والحمد لله ربّ العالمين .

— ١ —

هذه هى المرة الثانية التى نخرج فيها للناس ، هذه الوثيقة الإسلامية الهامة . .

وهى (وثيقة) لها قيمتها .. وينبغى أن يقف عليها الدعاة دارسين متأملين ...

وأوّل المعانى التى تقتبس من هذه الرسالة : أن الإسلام لا يعرف (الكهانة) .. فالداعية المسلم ليس رهين (صومعة) ولا حبيس

(دير) يقضى فيه أيامه ولياليه ، بحجة أنه يريد أن يحرر نفسه من ذلّ المعصية ....

ولا يعرف الإسلام معصية أعظم إثماً وجرماً من هذه المعصية ، معصية اجتناب المجتمع ، وتركه وما يدين ، دون بذل أية محاولة لإنقاذه من سقطته وكبوته وزلته !! ...

ما قيمة أن يعتق الإنسان نفسه ، والناس من حوله عبيد أرقاء ؟

ما قيمة أن يطهّر الإنسان نفسه ، والمجتمع كله غارق حتى أذقانه فى الوحل والدّنس ؟!

ثم ... هل يمكننا أن نسمّى إنساناً لجأ إلى (دير) واستلقى فى أحضان (جبل) أو (صحراء) حراً ... أو طاهراً ؟!

إن الفضيلة لا تظهر أصالتها عندما تهرب وتتروى ، ولكن عندما تواجه الرذيلة ، وتنتصر عليها ، بل وتؤثر فيها !!

وكذلك كان « إبن تيمية » ...

وكذلك كان سائر علماء المسلمين وفقهائهم ... !

و « الجوامع » الإسلامية شيء ....

و « الصوامع » اللا إسلامية شيء آخر ... !

الجوامع ... مجتمعات مفتوحة للعمل ، والتربية ، والجهاد ، والسياسة ، والحضارة ، والعلاقات ... !

والصوامع ... كهوف قامت بعيداً عن الناس ، والشمس ، والصراع ، والتجربة ، والإنتاج ... !

وكذلك يكون الفرق ـ دائماً ـ بين الجامع والصومعة .... بين « علماء » الجامع ، « ونزلاء » الصومعة ... !

فابن تيمية الذى يعيش فى دمشق . . يؤرقه ويقلقه أنين أسارى المسلمين الذى يتصاعد فوق أمواج البحر الأبيض فى « قبرص » !

فيكتب رسالته هذه إلى ملك قبرص ... !

— ٣ —

والمعنى الثانى الذى نقتبسه من هذه الرسالة ؛ ذكاء « ابن تيمية » وقدرته على صياغة « العبارة الدبلوماسية » — على حدّ تعبير العصر — ...

استمع إليه وهو يقول :

[والذى أختم به الكتاب ؛ الوصية بالشيخ أبى العباس ، وبغيره من الأسرى ، والمساعدة لهم ، والرفق بما عندهم من أهل القرآن ، والامتناع من تغيير دين واحد منهم ، وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله ، ونحن نجزى الملك على ذلك بأضعاف ما فى نفسه !!] .

فقوله : « ونحن نجزى الملك على ذلك بأضعاف ما فى نفسه » عبارة قد وصلت إلى مستوى عالٍ من اللباقة السياسية ... !

— ٤ —

ولقد عرف الإسلام السياسة ...

وعرف رجال الإسلام السياسة .. وأثر عنهم منها الشيء الكثير ...

ولـكنها ليست سياسة اللف والدوران ، وإنما هى سياسة الوضوح والاتزان ، والقوّة والإيمان ، والتضحية والفداء ...

سياسة ، العدل والسلام والرخاء للمسلمين ، ولغير المسلمين .

سياسة : هدفها : أن تـكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى ...

ولقد نجح الساسة المسلمون حيثما حلُّوا ونزلوا ، وأينما ذهبوا وارتحلوا ، فى تعليم الإنسان وإلزامه بشريعة الإحسان والتقوى ...

— ٥ —

والمعنى الثالث من معانى هذه الرسالة ...

هو أنها ألقت لنا الضوء على شخصية العالم المسلم ، وكيف ينبغى أن تـكون ؛ فهو رجل سيف وقلم ، رجل علم وعمل ... !

ليس رجل الملابس الفضفاضة المزركشة ... !

وليس رجل الفتاوى التى تعرض فى سوق المزايدات ... !

وليس رجل التجارة الذي يعتبر العلم سلعة من السلع ، ووظيفة من الوظائف ...

* * *

— ٦ —

هكذا كان علماؤنا ... قديما ... !

صانوا العلم ، فصانهم العلم ...

ثم خلف من بعدهم خلف ...

أهانوا العلم فهان ... !

وأضاعوه فضاع !

وأذلوه فذلّ !

وكانت فتنة ... وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله[١] :

« إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً ، ولكن ينزعه بقبض العلماء فيبقى ناس جهال ، يستفتون برأيهم فيضلون ويضلون » .

---

(١) من حديث عبد الله بن عمر — أخرجه البخارى ومسلم .

وفى رواية « : حتى إذا لم يبق عالم أخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيكون فى آخر الزمان عباد جهال ، وقراء فسقة » أخرجه أبو نعيم .

قال القرطبي : وهو صحيح معنًى ، لما ظهر فى الوجود من ذلك !!!

قال مكحول : يأتى على الناس زمان يكون عالمهم أنتن من جيفة حمار .

وعن معاذ بن جبل ، قال : سيبلى القرآن فى صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت ، يقرأونه فلا يجدون له شهوة ولا لذة ، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصروا قالوا : سنبلغ ، وإن أساءوا ، قالوا : سيغفر لنا ، وإنا لا نشرك بالله شيئا » أخرجه أبو محمد الدارمى .

وعن سلامة بن الحر ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن من أشراط الساعة أن يتدافع أهل المسجد إماما ،

فلا يجدون إماماً يصلى بهم » أخرجه أبو داود .

* * *

أولئك هم علماء السوء ...

وتلك هى طريقتهم ...

ربّ سلّم ، سلّم ؟

د . محمد جميل غازى

كلمـــة المحقق

بقلم فضيلة الشيخ

علي السيد صبح المدني

رحمه الله

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ؛ تعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شيئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا ـ فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : الآية ٦٤]

فى أرض الله دعوات كثيرة ، تعمل فى إصرارٍ على أن تحيا ، وتجاهد فى عنفٍ لكى تنتشر ، وتبذل الكثير لكى تحصل على مزيدٍ من الأتباع والأصدقاء .

وتصطدم هذه الدعوات فى قسوة ، وترتطم فى عنادٍ ، كل واحدة تريد لنفسها البقاء ، وترجو لأتباعها السيطرة .

ويزداد الصراع ويزداد ، ويحتد ، ويشتد .

ويحتوى الأرض قتام رهيب ، ويستبد بأهلها الخوف والقلق والفزع ، وينزل بهم الرعب والأرق والجزع ، ويتطلعون فى لهفة وحنين ، إلى ملجأ آمن ، أو مرفأ هادىء ، يجدون فى رحباته السلام ، ويذوقون فى حماه السعادة .

ولكن : قسوة الإعصار ، وشدة العاصفة ، لفتتهم عن سوائهم وفتنتهم عن أنفسهم ، فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى الحق وهو قريب ، ولا أن يبصروا النور وهو واضح ، ولا أن يستجيبوا لداعى الله وهو مبين .

إن الذهول الذى حلَّ بأهل هذا الكوكب البائس ـ الأرض ـ ذهول طويل عريض عميق ، أحال صبحهم المشرق الوضاء إلى قتام وغيام ، وحوّل أفراحهم الخلابة الطروب ، إلى دموع وآهات وزفرات !

وانساب القطيع يعربد فى عماء ، ويضرب فى سباسب وقفار ، وتشعبت به الطرق ، واختلطت فى ناظره السبل ، ومن حوله

« تجار الدعوات » يدعونه : إلى الهدي ائتنا ، ويهرع المسكين إليهم يلتمس الهدى ، ويقتبس النور ، فإذا ـ برق خلب ، ولـكنه خلوف » وإذا ماء جار ـ ولـكنه سراب .

ويرجع المسكين ، محطم القوى ، مزعزع اليقين ، مضطربه الفكر ! لقد عاد ، حتى بلا خفى حنين .

* * *

فى أرض الله دعوات كثيرة .

وفى أرض الله دعاة كثيرون .

ولـكنها كلها دعوات موصولة بالطين ، مركوزة فى الرغام ؛ لم يباركها الله ، ولم تنزل من السماء ، إنمـا خلقتها الأهواء البشرية خلقاً ، وافترتها النفوس المريضة افتراء .

وحتى الدعوات التى كان لها مدد من الله ، وعون من هداه ؛ انحرفت فى ذهول عن سوائها ، وابتعدت فى جنون عن نهجها »

وعادت مزيجاً بغيضاً من الخرافات والأوهام والضلالات ، وآضت ركاماً هائلا من الغرض والمرض والهوي .

* * *

وفى زاوية من زوايا الأرض ، وفى ركن من أركان هـذا الـكوكب البائس ، ينبعث صوت حان رحيم ، يدعو الضالين إلي الهداية ، وينادي الظماء إلى النبع ، ويدل الحيارى على الطريق .

هذا الصوت ، هو صوت الإسلام .

لإسلام ؛ كلمة الله الرحمن الرحيم ، إلي الأملاء التائهة ، ونور الله اللطيف الخبير إلى الأرجاء المعتمة .

ولا يكاد الصوت يصل إلى الآذان البليدة ، ولا يستقر فى القلوب العنيدة ، لا لضعف به ، ولا لهوان فى مبادئه ، ولـكن : لأن أتباعه آثروا الصمت لأنه من ذهب ، وتركوا الجهاد فى سبيله لأن له رباً يحميه ، ـ ولأن أعداءه أطلقوا حوله النحل الفاسدة ، والأكاذيب المفتراه ، ليصرفوا الناس عن هداه ، وليحجبوا عن الأعين سناه .

أفلا يعلم المسلمون : وهم حرّاس دعوة الله فى الأرض، والقوّامون على الخير فى هذه الدنيا .

أفلا يعلمون : أنهم مسئولون عن هداية كل ضال ، وإرشاد كل حائر ، والأخذ بيد كل عاثر ؟

أفلا يعلمون : أن فى أعناقهم رسالة يجب أن تؤدى على حساب دمائهم وأعصابهم وأموالهم ؟ إلا يفعلوا : تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

* * *

أيها المسلمون : إنما كنتم خير أمة أخرجت للناس ، لأنكم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .

ليس اتفاقاً - إذاً - ولا اعتباطاً ولا محاباة ، أن تكونوا سادة الأرض ، وإنما لأنكم تحملون عناصر هذه السيادة .

الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله .

وحينما تهجرون هذه العناصر ، وتتخلون عن هذه المقومات ، تنزل بكم لعنة الله التى نزلت على اليهود من قبل .

ألم يكن اليهود أيضاً ـ خير أمة أخرجت للناس ـ ؟

ألم يفضلهم الله على العالمين ؟

ثم ماذا ؟

ثم نزلت بهم لعنة الله ، فغدوا قردة وخنازير .

أتدرون لماذا ؟

لأنهم : ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ .

إن الأمر بالمعروف .

وإن النهى عن المنكر .

إن الدعوة إلى الإسلام بكل أسلوب ، وإن الذبّ عن حياضه بكل لسان ، أمر يوجبه موقفكم على الأرض ، ياحملة النور . إنه الدعوات الخاسئة الخاسرة من حولكم التى انبعثت من الطين ، من الطمى ، من الرغام . تعمل فى إصرار عجيب على أن تسود ، وتقوم بنضال رهيب لكى تستبد .

تقدموا ـ يا أمة محمد عليه السلام ـ ياخير أمة أخرجت للناس ـ خوضوا المعركة الشموس ، وشقوا العثير الكثيف ، وطأوا الأرض

الحزون، وأنقذوا الإنسانية من عثرتها الكابية، وأيقظوا البشرية من نومتها الغافية .

ارفعوا صوتكم على كل صوت .

* * *

وأعلوا رايتكم على كل راية

انثالت هذه المشاعر والأحاسيس على خاطرى ، وانساب القلم يسجلها فى حرارة وإيمان .

كان ذلك ؛ عقب أن قرأت الرسالة الطيبة المؤمنة الكريمة ، التى أرسل بها « شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية » إلى ملك قبرص .

وترحمت على « ابن تيمية » وترضيت عنه ، لقد كان رجلا يؤمن أنه مسئول عن تبليغ كلمة الله إلى كل أذن ، ونشر هداه فى كل أفق .

كان يحز فى نفسه ، أن يسمع أنين الأسارى المسلمين ، يتعالى من عرض البحر ، وكان يؤرقه أن تنبعث صيحة ألم من لهاة أخٍ مسلم !

كان يؤمن هذا الإيمان !

وكان يحسّ هذا الإحساس !

ومن أجل هذا كتب إلى « ملك قبرص » :

ليتنا اليوم نهج نفس المنهج ، ونسير فى نفس السبيل .

إذا لتغيَّر وجه الأرض . وإذا لتبدل أمر الناس !

* * *

إن الإسلام يحمل فى طبيعته عناصر السموّ والسموق والانتشار .

إن دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

وإن قليلا من التفكير ، وإن قليلا من التدبُّر كافٍ لجعل الناس يعتنقونه حتما ! لأنه دين يتواءم مع العقل ، ويتوافق مع التفكير المنطقى السليم .

فبقليل من الدعاية ، وبقليل من التعريف به نصل إلى نتائج سارة ناجحة .

وبقليل من الدعاية ، وبقليل من التعريف به يقبل عليه أحرار الفكر من كل مكان ، لأنه الدين الوحيد الذى يرحّب بالفكر الحرّ ، والعقل السليم ، والبحث العلمى المخلص . ولأنه الدين الوحيد الذى يدعو إلى التدبر والتأمل والنظر ، ويطالب كل معتقد أن يدلِّل على

مايعتقد . ولأنه يحارب التقليد الأعمى ، والوقوف عندما خَلَفه الآباء والأجداد من تراث فكرى ، بدون بحث أو دراسة أو موازنة .

والداعية المسلم اليوم لن يتحمل كثيراً من العنت والإرهاق، لأن المدارس العلمية الحديثة ، سترحب به كثيراً وتسهل له الطريق كى يؤدى مهمته !

كل ما سيفعله الداعية المسلم أن يقدم دينه للناس ، خالياً من الضلالات والأوهام التى ألصقت به إلصاقاً ، سواء من الجهلة من أبنائه ، أم من الحقودين من أعدائه !

ويوم يقوم الداعية المسلم ـ بهذا العمل المشكور ـ يوم تنساب الأمم الظمأى ، و الأفواج العطشى ، لِتَرِدَ المنبع الصافى الثجاج فى لهفة وشوق وحنين .

* * *

ليست أمنية مجنحة ، وليست خيالات جامحة . أن أقول : إن الإسلام يحمل فى أطوائه عوامل السمو والسموق والانتشار . وأن أقول : إن قليلاً من الدعاية له ، وإن قليلاً من التعريف به ؛ كافٍ

لكي يحول وجه البشرية شطره ، ولكى يلفت أنظار العالم إليه .

فذلك هو الواقع تمليه الثقافة البشرية المعاصرة ، التى تكفر بالخرافة مهما أخذت زخرفها وازّينت ، وتنكر التقليد لأنها لا ترى أن الفكر البشرى عقارٌ يورث ويُوهب ، إنما هو اقتناع وإيمان وعقيدة أولا وقبل كل شىء .

ومن هنا أومن بأن العقل الجديد لو التقى بالإسلام لعرفه ولما أنكره .

يقول « جورج برناردشو » الكاتب الإنجليزى المشهور ، فى رسالة له بعنوان (نداء العمل) :

[. . . لامشاحة أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار الرجال ، ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غداً ، ولقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم .

ولقد صوَّر « إكليروس » القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان ؛ إما بسبب الجهل ، أوبسبب التعصب الذميم .

ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد ، وكراهية دينه ،

وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح ، ولقد درسته باعتباره رجلا مدهشاً فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح .

بلى يجب أن يدعى منقذ الإنسانية ...

وإنى لأعتقد بأنه لو تولَّى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث لنجح فى حلّ مشكلاتها بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة ، وهو فى أشد الحاجة إليهما .

ولقد أدرك فى القرن التسع عشر مفكرون مخلصون أمثال : (كارليل) و (جون) و (جيبيون) القيمة الذاتية لدين محمد ، وهكذا وجد تحوّل حسن فى موقف أوروبا من الإسلام .

ولكن أوروبا فى القرن الراهن تقدَّمت فى هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد .

وفى القرن التالى ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشكلاتها .

فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى .

وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومى ، ومن أوروبا ، قد دخلوا فى دين محمد .

حتى ليمكن أن يقال إن تحوّل أوروبا إلى الإسلام قد بدأ] .

* * *

ويقول السياسى الفرنسى « مسيو ليون روش » :

[عدت إلى الشريعة التى يسمّيها « جول سيمون » الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت من الإسلام أخذاً] [١] .

* * *

ليست أمنية مجنحة إذاً .

وليست خيالات جامحة ... ولكنها الواقع يمليه الضمير الإنسانى الذى أراد أن يصل إلى الخير ، وإلى الحق ، وإلي النور .

* * *

رسالة « ابن تيمية » التى بين أيدينا ، محاولة كريمة نبيلة للدعوة إلى الله ، وقد ناقش فيها الرجل المؤمن الواعى ، الديانة المسيحة فى هدوء واتزان .

ناقش فكرة « التثليث » الوافدة على المسيحية المنزلة ، من الوثنيات القديمة ، وناقش فكرة « الصلب » المزعومة المفتراه . وناقش فكرة « نبوّة المسيح لله » .

---

(١) انظر جول سيمون فى الديانة التى تسود أفقه الأوربى ، فإذا بها لا ترضى إلا السذج والبلهاء ، لما فيها من تحريف وتجديف : [كالتثليث ، والصلب ، والفداء ، والكهانة ، والرهبنة] فخرج على الناس بما سماه الديانة الطبيعية ، التى تنادى بالتوحيد ، ومكارم الأخلاق والإيمان بالبعث .

ذكّرنى بالقاضى الباقلانى[١] الذى سفر لعضد الدولة سنة ٣٧١هـ إلى الروم الشرقيين ـ فلما دخل يوماً على الإمبراطور، وكان عنده بعض مطارنته ورهبانه ـ قال لهم مستهزئاً : [كيف أنتم، وكيف الأهل والأولاد ؟] فتعجَّب منه الامبراطور، وقال له : ذكر من أرسلك فى كتابه أَنك لسان الأمة، ومتقدم على علماء الملّة، أما علمت أننا نتره هؤلاء عن الأهل والأولاد ؟.

فقال القاضى أبو بكر : ـ عجباً لكم ـ أنتم لاتنزهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد، وتنزهون هؤلاء ؟ فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجلّ وأعلا من الله سبحانه وتعالى ؟

وكلام كثير، ومناقشات شتى جرت بين القاضى الباقلانى وعلماء المسيحية ذكرها ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٧١هـ من الكامل.

ولاحاجة لنا بسردها جميعها .

إنما نحن بحاجة إلى أن نقول إن « ابن تيمية » أجاد وأبدع فى دعوته إلى الإسلام، أيّما إجاد وأيّما إبداع .

ولقد وصل قمّة الإجادة، وذروة الإبداع، فى قوله مخاطباً « سرجواس » :

---

(١) توفى سنة ٤٠٣ هـ .

[... فإن كان عند الملك من يثق بعقله ودينه ، فليبحث معه عن أصول العلم ، وحقائق الأديان ، ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلدين الذين لا يسمعون ولا يعقلون إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضلّ سبيلاً .

وأصل ذلك أن تستعين بالله ، وتسأله الهداية ، وتقول : اللهم أرنى الحق حقاً وأعنّي على اتباعه ، وأرنى الباطل باطلا ، وأعنّى على اجتنابه ، ولا تجعله مستبهماً علىّ فأتبع الهوى .

وقل : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم) .

فكأنه يدعوه إلى :

١ — التفكير الحرّ

٢ — والإخلاص فى هذا التفكير الحرّ

وهذا هو اعتداد الداعية المسلم بدينه ، وبالخير الذى يحمله .

إن الداعية المسلم لا ينثر الذهب يميناً وشمالا ليؤمن الناس ، إنما يدعوهم إلى التفكير المخلص فقط .

* * *

وبعد : فهذا هو « ابن تيمية » المسلم في إخلاصه واعتداده واتزانه رضي الله عنه ، وأثابه ، وأعظم له الأجر .

ووفق الله المسلمين ؛ في شتى البقاع والأصقاع ، إلى أن ينهجوا نهجه – حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

وصدق الله العظيم :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾(٥) .

القاهرة في { ٢٠ شوال ١٣٨٠ هـ
٦ أبريل ١٩٦١ م }

علي السيد صبح المدني
رحمه الله

---

(١) فصلت : آية ٥٣ .

الرِّسَالَةُ القُبْرُصِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

• من : أحمد بن تيمية .

إلى : سرجوان عظيم أهل ملته ، ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين ، وعظماء القسيسين ، والرهبان ، والأمراء ، والكتاب ، وأتباعهم .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد :

• فإنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ؛ إله إبراهيم وآل عمران[1] .

ونسأله أن يصلى على عباده المصطفَيْن وأنبيائه المرسلين .

ويخص بصلاته وسلامه أولى العزم[2] ، الذين هم سادة الخلق

(١) إنما خص « الإمام » رحمه الله بالذكر إبراهيم وآل عمران ، لأن الخليل عليه السلام أبوالأنبياء ، ولأن المقصود بآل عمران « مريم » أم السيد المسيح عليه السلام ـ ومراعاة لقوله تعالى : [إن الله اصطفى آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران على العالمين] .

(٢) العزم هو الصبر على تحمل المشاق ، وإنما سمى هؤلاء أولو العزم لأنهم تحملوا المشاق أكثر من غيرهم .

وقادة الأمم ، الذين خُصُّوا بأخذ الميثاق ، وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، كما سماهم الله تعالى فى كتابه فقال عز وجل :

﴿ شَرع لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ماَ وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِى أَوْحَيْناَ إِلَيْكَ ، وَماَ وَصَّيْناَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ على الْمُشْرِكِينَ ماَ تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْناَ مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاَقَهُمْ ، وَمِنْكَ ، ومِنْ نُوحٍ ، وإِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وأَخَذْناَ مِنْهُمْ مِيثاقاً غليظاً ، لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[٢] .

* * *

• ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين وخطيبهم إذا وفدوا على ربهم ، وإمامهم إذا اجتمعوا ، شفيع الخلائق

---

(١) الشورى : ١٣ .
(٢) الأحزاب : ٧ ، ٨ .

يوم القيامة ، نبيّ الرحمة ونبيّ الملحمة[١] . الجامع محاسن الأنبياء ، الذى بشَّر به عبد الله وروحه وكلمته التى ألقاها إلى الصدِّيقة الطاهرة البتول[٢] التى لم يمسها بشر قط : مريم ابنة عمران — ذلك مسيح الهدى عيسى ابن مريم ، الوجيه فى الدنيا والآخرة ، المقرَّب عند الله ، المنعوت بنعت الجمال والرحمة لما انجر بنو إسرائيل فيما بعث به موسى من نعت الجلال والشدة ، وبعث الخاتم[٣] الجامع بنعت الكمال المشتمل على الشدَّة على الكفَّار ، والرحمة بالمؤمنين ، والمحتوى على محاسن الشرائع والمناهج التى كانت قبله صلى الله عليه وسلم أجمعين ، وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة .

• أما بعد :

فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم آثار مشيئته

---

(١) الحرب ـ والنبي صلى الله عليه وسلم « نبي ـ أمر بالحرب » . ولكن لا ينبغى أن ننسى أنه نبي الرحمة أيضاً ـ يمثل المعنى الأول القول الكريم : [قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا اليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون] . ويمثل المعنى الثانى القول الكريم : [وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله] .

(٢) البتول : المرأة المنقطعة من الأزواج أى : العذراء ، أو المنقطعة إلى ربها تعبده ـ وقد يكون المقصود كلا المعنيين هنا ـ ولكن الأول أظهر .

(٣) يقصد محمداً صلى الله عليه وسلم .

وحكمته ورحمته ، وجعل المقصود الذى خلقوا له فيما أمرهم به هو عبادته .

وأصل ذلك هو معرفته ومحبته . فمن هداه الله صراطه المستقيم ، آتاه رحمةً وعلماً ومعرفةً بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ورزقه الإنابة إليه ، والوجل لذكره والخشوع له ، والتأله له[١] ؛ فحنَّ إليه حنين النسور إلى أوكارها ، وكلف بحبه كلف الصبي بأمه ، لايعبد إلا إياه رغبةً ورهبةً ومحبةً ، وأخلص دينه لمن الدنيا والآخرة له ، ربٌّ الأولين والآخرين ، مالك يوم الدين ، خالق ما تبصرون ، وما لا تبصرون ، عالم الغيب والشهادة ، الذى أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . لم يتخذ من دونه أنداداً[٢] — كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله . ولم يشرك بربه أحداً ، ولم يتخذ من دونه ولياً ولا شفيعاً ، لا مَلَكا ولا نبياً ولا صديقاً ؛ فإنْ كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدَّهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً — فهناك اجتباه ربه ، واصطفاه وآتاه رشده ، وهداه لما

---

(١) التأله : التحنث والتعبد .

(٢) الند : المثل والنظير .

اختلف فيه من الحق بإذنه ؛ فإنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

[قصة الصراع بين التوحيد والشرك]

● وذلك :

أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام — وقبل نوح عليه السلام ، على التوحيد والإخلاص ؛ كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر — عليه السلام ! — حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان بدعةً من تلقاء نفوسهم — لم ينزل الله بها كتاباً ، ولا أرسل بها رسولا — بشبهات زيّنها الشياطين من جهة المقاييس الفاسدة ، والفلسفة الحائدة .

قوم منهم : زعموا ؛ أن التماثيل طلاسم الكواكب السماوية ، والدرجات الفلكية ، والأرواح العلوية .

وقوم : اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين(١) .

---

(١) فسر « ابن عباس » رضى الله عنه القول الكريم : [وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا] بقوله : ـ هذه أسماء رجال من قوم نوح ، لما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون عليها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم يعبدوا ـ حتى إذا هلك أولئك ، ونسى العلم ـ عبدت.

وقوم : جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن ، والشياطين .

وقومٌ : على مذاهب أُخر .

وأكثرهم لرؤسائهم مقلَّدون ، وعن سبيل الهدى ناكبون ، فابتعث الله نبيه نوحاً عليه السلام ! — يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وينهاهم عن عبادة ماسواه ؛ وإن زعموا أنهم يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى الله زلفى ويتخذوهم شفعاء — فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، دعا عليهم فأغرق الله تعالى أهل الأرض بدعوته .

• وجاءت الرسل بعده تترى[١] ، إلى أن عمَّ الأرض دين الصابئة والمشركين — لما كان النماردة[٢] والفراعنة ملوك الأرض شرقاً وغرباً — فبعث الله تعالى إمام الحنفاء[٣] ، وأساس الملة الخالصة ، والكلمة الباقية : إبراهيم خليل الرحمن .

---

(١) تتوالى .

(٢) النماردة — جمع نمروذ — بتخفيف الذال إلى الدال — والنمروذ — هو الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك .

(٣) الحنفاء — جمع حنيف — وهو المسلم .

فدعا الخلق من الشرك إلى الإخلاص ، ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام ، وقال :

﴿ وجَّهتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وقال لقومه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٢) .

وقال إبراهيم عليه السلام ومن معه لقومهم :

« إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ (٣) .

---

(١) الأنعام : ٧٩ .
(٢) الشعراء : ٧٥ ـ ٨٢ .
(٣) الممتحنة : ٤ .

• فجعل الله الأنبياء والمرسلين من أهل بيته(١) ، وجعل لـكل منهم خصائص ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وآتى كلا منهم من الآيات ؛ ما آمن على مثله البشر .

فجعل لموسى العصا حيَّة حتى ابتلعت ماصنعت السحرة الفلاسفة من الحبال والعصيّ ، وكانت شيئاً كثيرا . وفلق له البحر حتى صار يابساً ، والماء واقفاً حاجزاً بين اثنى عشر طريقاً على عدد الأسباط ، وأرسل معه القُمَّلَ والضفادع والدم ، وظلل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم . وأنزل عليهم صبيحة كل يوم المنَّ والسلوى ، وإذا عطشوا ضرب موسى بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ؛ قد علم كل أناس مشربهم .

• وبعث بعده أنبياء من بنى إسرائيل ؛ منهم من أحيا الله على يده الموتى .

ومنهم من شفى الله على يده المرضى .

ومنهم من أطلعه على ما شاء من غيبه . منهم من سخَّر

---

(١) ذلك أن إبراهيم عليه السلام ! وهب ولدين : إسماعيل وإسحاق أما إسماعيل فلم يكن من ذريته نبي إلا نبينا صلى الله عليه وسلم ـ وأما إسحاق فـكان من ذريته جميع أنبياء بنى إسرائيل ـ وإسرائيل عليه السلام هو (يعقوب بن إسحاق) .

له المخلوقات . ومنهم من بعثه بأنواع المعجزات .

وهذا مما اتفق عليه جميع أهل الملل ، وفى الكتب التى بأيدى اليهود والنصارى ، والنبوات التى عندهم وأخبار الأنبياء عليهم السلام ؛ مثل : أشعياء ، وأرمياء ، ودانيال ، وحبقوق ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم — وكتاب سِفر الملوك(١) وغيره من الكتب مما فيه معتبر .

[المسيح . . وبنو إسرائيل]

• وكانت بنو إسرائيل أمة قاسية عاصية ، تارة يعبدون الأصنام والأوثان ، وتارة يعبدون الله ، وتارة يقتلون النبيين بغير الحق ، وتارة يستحلون محارم الله بأدنى الحيل .

فلعنوا أولا على لسان داود — وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف عند أهل الملل كلهم .

• ثم بعث الله المسيح ابن مريم رسولا ، قد خلت من قبله الرسل ، وجعله وأمه آية للناس ؛ — حيث خلقه من غير أب

---

(١) أحد أسفار العهد القديم .

إظهاراً لكمال قدرته ، وشمول كلمته ، — حيث قسَّم النوع الإنسانى الأقسام الأربعة :

فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى .

وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى .

وخلق ، المسيح ابن مريم من أنثى بلا ذكر .

وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والأنثى .

وآتى عبده المسيح من الآيات البينات ماجرت به سنته ، فأحيا الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وأنبأ الناس بما يأكلون ومايدخرون فى بيوتهم — ودعا إلى الله وإلى عبادته ، متبعاً سنة إخوانه المرسلين ، مصدِّقاً لمن قبله ، ومبشِّراً بمن يأتى بعده .

[الناس يختلفون فى عيسى]

● وكان بنو إسرائيل قد عَتَوْا وتمرَّدوا — وكان غالب أمره[1] اللين والرحمة ، والعفو والصفح ، وجعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، وجُعِل منهم قسيسين ورهباناً .

---

(١) يعنى المسيح عليه السلام .

• فتفرق الناس فى المسيح عليه السلام ومن اتَّبعه من الحواريين ثلاثة أحزاب :

قوم كذَّبوه وكفروا به ، وزعموا أنه ابن بغىّ ، ورموا أمه بالفِرية ، ونسبوه إلى يوسف النجار[١] ، وزعموا أن شريعة التوراة لم ينسخ منها شىء ، وأن الله لم ينسخ ما شرعه .

— بعد ما فعلوه بالأنبياء ، وما كان عليهم من الآصار فى النجاسات والمطاعم[٢] .

وقوم : غلوا فيه وزعموا : أنه الله ، وابن الله ، وأن اللاهوت[٣] تدرّع الناسوت[٣] ، وأن رب العالمين نزل ، وأنزل ابنه ليصلب ويقتل فداءً لخطيئة آدم عليه السلام .

• وجعلوا الإلٰه الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً[٤] أحد . قد ولد ، واتخذ ولداً ، وأنه إلٰه حىّ عليم قدير

---

(١) يوسف النجار هذا ــ كان خاطباً لمريم عليها السلام .
(٢) المقصود بهؤلاء القوم ــ اليهود ــ أخزاهم الله !
(٣) اللاهوت ، والناسوت ــ كلمتان معناهما : الله ، والإنسان وزيدت الواو والتاء على كل من اللفظين من باب [زيادة المبنى] تدل على زيادة المعنى .
(٤) كفواً ــ مخفف كفء ــ وهو النظير .

جوهر واحد — ثلاثة أقانيم(١) — وأن الواحد منها أُقنوم الكلمة وهى العلم ، هى تدرّعت الناسوت البشرى .

مع العلم بأن أحدهما لا يمكن انفصاله عن الآخرَين ، إلا إذا جعلوه ثلاثة إلاهات متباينة ، وذلك ما لا يقولونه .

• وتفرقوا فى التثليث والاتحاد تفرُّقاً وتشتتوا تشتتاً لا يقرُّ به عاقل ، ولم يجىء به نقل ؛ إلا كلمات متشابهات(٢) فى الإنجيل وما قبله من الكتب ، قد بينتها كلمات محكمات فى الإنجيل وما قبله ، كلها تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده ، ودعائه وتضرعه(٣) .

[انحراف النصارى]

• ولما كان أصل الدين : هو الإيمان بالله ، ورسله — كما قال خاتم النبيين والمرسلين : « أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

---

(١) الأقانيم : جمع أقنوم وهو : الأصل ، ولعلها كلمة رومية .

(٢) كقول العهد الجديد على لسان المسيح : [اذهبوا إلى جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الأب والإبن وروح القدس الإله الواحد] .

(٣) راجع : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية فى أربعة مجلدات .

وقال : « لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »[١] .

كان أمر الدين توحيد الله ، والإقرار برسله . ولهذا كان الصابئون والمشركون كالبراهمة[٢] ونحوهم من منكرى النبوات مشركين بالله فى إقرارهم وعبادتهم ، وفاسدى الاعتقاد فى رسله .

فأرباب التثليث فى الوحدانية ، والاتحاد فى الرسالة ، قد دخل فى أصل دينهم من الفساد ماهو بيِّن بفطرة الله التى فطر الناس عليها ، وبكتب الله التى أنزلها .

ولهذا كان عامة رؤسائهم من القسيسين والرهبان ، وما يدخل فيهم من البطارقة ، والمطارنة ، والأساقفة ، إذا صار الرجل منهم فاضلا مميزاً — فإنه ينحل عن دينه ويصير منافقاً لملوك أهل دينه ، وعامتهم ، رضى بالرياسة عليهم وبما يناله من الحظوظ ؛ كالذى كان ببيت المقدس ، الذى يقال له : « ابن البورى » — والذى كان بدمشق الذى يقال له : « ابن القف » — والذى بقسطنطينية وهو :

---

(١) الإطراء : المدح .
(٢) جمع برهمى — نسبة إلى معبودهم براهما — وهم يؤمنون بتناسخ الأرواح وهم لهذا يعبدون الحيوان لاعتقادهم أن أرواح آبائهم وأجدادهم حلت فيه .

« البابا » عندهم — وخلقٌ كثير من كبار « البابا وات » والمطارنة ، والأساقفة — لما خاطبهم قومٌ من الفضلاء أقرُّوا لهم بأنهم ليسوا على عقيدة النصارى ، وإنما بقاؤهم على ماهم عليه لأجل العادة والرياسة ؛ كبقاء الملوك والأغنياء على ملكهم وغناهم . ولهذا تجد غالب فضلائهم إنما همّة أحدهم نوع من العلم الرياضى — كالمنطق والهيئة والحساب والنجوم ، أو الطبيعىّ — كالطب ، ومعرفة الأركان . أو التكلم فى الإلٰهى على طريقة الصابئة الفلاسفة الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ قد نبذوا دين المسيح والرسل الذين قبله وبعده ، وراء ظهورهم ، وحفظوا رسوم الدين لأجل الملوك والعامة .

• وأما الرهبان فأحدثوا من أنواع المكر والحيل بالعامة ، مايظهر لكل عاقل — حتى صنَّف الفضلاء فى حيل الرهبان كتباً مثل : النـــــار التى كانت تصنع — بقمامة يدهنون خيطاً دقيقاً « بسندروس » ويلقون النار عليه بسرعة فتنزل — فيعتقد الجهَّال أنها نزلت من السماء ويأخذونها إلى البحر ، وهى صنعة ذلك الراهب ، يراه الناس عياناً ، وقد اعترف هو وغيره بأنهم يصنعونها .

• وقد اتفق أهل الحق من جميع الطوائف على أنه لاتجوز عبادة الله تعالى بشىء ليس له حقيقة .

وقد يظن المنافقون أن ماينقل عن المسيح وغيره ، من المعجزات ، من جنس النار المصنوعة ، وكذلك حيلهم فى تعليق الصليب ، وفى بكاء التماثيل التى يصورونها على صورة المسيح وأمه وغيرهما ونحو ذلك — كل ذلك ، يعلم كل عاقل آنه إفك مفتري ، وأن جميع أنبياء الله ، وصالحى عباده برآء من كل زور باطل ، وإفك كبرائهم من سحر سحرة فرعون .

• ثم إن هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التى يعبدون الله بها ، فناقضوا الأولين من اليهود فيها ، مع أنهم يأمرون بالتمسك بالتوراة ؛ إلا مانسخه المسيح .

تناقض]

• قصّر هؤلاء فى الأنبياء حتى قتلوهم ، وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدوهم وعبدوا تماثيلهم .

وقال أولئك : إن الله لايصلح له أن يغيِّر ما أمر به فينسخه لافى وقت آخر ، ولا على لسان نبيٍّ آخر .

وقال هؤلاء : بل الأحبـــار والقسيسون يغيِّرون ما شاءوا ، ويحرّمون ما رأوا ومن أذنب ذنباً وظّفوا عليه ما رأوا من العبادات

وغفروا له . ومنهم من يزعم أنه ينفخ فى المرأة من روح القدس فيجعل البخور : قربانا .

وقال أولئك : حرِّم علينا أشياء كثيرة — وقال هؤلاء : مابين « البقة » و « الفيل » حلالٌ - كلْ ماشئت ، ودع ماشئت .

وقال أولئك : النجاسات مغلّظة حتى إن الحائض لا يُقْعَد معها ، ولا يؤكل معها .

وهؤلاء يقولون : ما عليك شىء نجس ، ولا يأمرون بختان ولا غسل من جنابة ولا إزالة نجاسة ، مع أن المسيح والحواريين كانوا على شريعة التوراة .

[عبادات مبتدعة]

• ثم إن الصلاة إلى المشرق ، لم يأمر بها المسيح ، ولا الحواريون ، ابتدعها قسطنطين[1] أو غيره . وكذلك الصليب

(١) ـ قسطنطين ـ رجل رفعه النصارى على سرير الأباطرة سنة ٣٠٥ م . وانتصرت به النصرانية انتصاراً عظيماً في ميدان القتال ، ولكنها انهزمت به انهزاماً شنيعاً فى معترك الأديان . يقول (درابر) ص ١٥٧ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى [دخلت الوثنية والشرك فى النصرانيـة بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة . ومناصب عالية فى الدولة الرومية ، بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين قد قضى عمره فى الظلم والفجور ـ ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره سنة ٣٣٧ م] .

إنما ابتدعه قسطنطين برأيه، وبمنام زعم أنه رآه.

وأما المسيح والحواريون فلم يأمروا بشيء من ذلك.

● والدين الذى يتقرَّب العباد به إلى الله ، لابد أن يكون الله أمر به وشرعه على ألسنة رسله وأنبيائه ؛ وإلا فالبدع كلها ضلالة ، وما عبدت الأوثان إلا بالبدع. وكذلك إدخال الألحان فى الصلوات لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون.

وبالجملة : فعامة أنواع العبادات والأعياد التى هم عليها لم يُنزل بها الله كتاباً، ولا بعث بها رسولا.

[مقارنة بين اليهود والنصارى]

● لكن فيهم رأفة ورحمة ، وهذا من دين الله[١]. بخلاف الأولين[٢] فإن فيهم قسوة ومقتاً ، وهذا مما حرَّمه تعالى ؛ لكن : الأولون[٣] لهم تمييز وعقل مع العناد والكبر. والآخرون[٤] فيهم ضلال عن الحق ، وجهل بطريق الله.

---

(١) يعنى النصارى.
(٢) يعنى اليهود.
(٣) يعنى اليهود أيضاً.
(٤) يعنى النصارى.

• ثم إن هاتين الأمتين تفرقتا أحزاباً كثيرة فى أصل دينهم واعتقادهم فى معبودهم ورسولهم .

هـذا يقول : إن جوهر اللاهوت والناسوت صارا جوهراً واحداً ، وطبيعة واحدة ، وأُقنوما واحداً ؛ وهم اليعقوبية .

وهذا يقول : بل هما جوهران ، وطبيعتان ، وأُقنومان ؛ وهم النسطورية .

وهذا يقول بالاتحاد من وجه دون وجه ؛ وهم الملـكانية .

• وقد آمن جماعات من علماء أهل الـكتاب قديماً وحديثاً ، وهاجروا إلى الله ورسوله ، وصنَّفوا فى كتب الله من دلالات نبوة النبي خاتم المرسلين ، وما فى التوراة والزبور والإنجيل من مواضع لم يدبروها ، وكذلك الحواريون .

فلما اختلف الأحزاب من بينهم هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فبعث النبي الذى بشَّر به المسيح ومن قبله من الأنبياء — داعياً إلى ملة إبراهيم ، ودين المرسلين قبله وبعده ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، وإخلاص الدين كله لله ، وطهر الأرض من عبادة الأوثان ، ونزه الدين عن الشرك دِقِّه وَجِلِّه ، بعد ما كانت

الأصنام تُعبد فى أرض الشام وغيرها فى دولة بنى إسرائيل ، ودولة الذين قالوا : إنا نصارى ، وأمر بالإيمان بجميع كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وبجميع أنبياء الله من آدم إلى محمد .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾(١) .

● وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل ؛ فقال تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

---

(١) البقرة : ١٣٥ ـ ١٣٨ .

أَلاَّ نَعْبُدَ اللهَ ولاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(١) .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾(٢) .

قال تعالى : ﴿ ما كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيهُ اللهُ الْكِتَابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ ولَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ولاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾(٣) .

● وأمره أن تكون صلاته وحجّه إلى بيت الله الحرام ؛ الذى بناه خليله إبراهيم ، أبو الأنبياء ، وإمام الحنفاء ، وجعل أمته وسطاً ، فلم يغلو فى الأنبياء كغلوٍّ من عدلهم(٤) بالله ، وجعل فيهم شيئاً من الإلهية ، وعبدهم ، وجعلهم شفعاء ، ولم يجفوا جفاء من آذاهم ،

---

(١) آل عمران : ٦٤
(٢) الشورى : ٥١ .
(٣) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠ .
(٤) عدل : بمعنى سوى .

واستخفّ بحرماتهم ، وأعرض عن طاعتهم ؛ بل عزروا الأنبياء : أى عظموهم ، ونصروهم ، وآمنوا بما جاءوا به ، وأطاعوهم ، واتبعوهم ، وائتمّوا بهم ؛ وأحبوهم ، وأجلّوهم ، ولم يعبدوا إلا الله ؛ فلم يتكلوا إلا عليه ، ولم يستعينوا إلا به ، مخلصين له الدين حنفاء .

• وكذلك فى الشرائع ، قالوا : ما أمرنا الله به أطعناه ، ومانهانا عنه انتهينا . وإذا نهانا عما كان أحله ؛ كما نهى بنى إسرائيل عما كان أباحه ليعقوب ، أوأباح لنا ما كان حراماً ؛ كما أباح المسيح بعض الذى حرَّم الله على بنى إسرائيل — سمعنا وأطعنا .

وأما غير رسل الله وأنبيائه فليس لهم أن يبدِّلوا دين الله ، ولا يبتدعوا فى الدين مالم يأذن به الله . والرسل إنما قالوا تبليغاً عن الله ؛ فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، فكما لايخلق غيره ، لايأمر غيره ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

---

(١) يوسف : ٤٠ .

[الأمة الوسط]

• وتوسطت هذه الأمة فى الطهارة والنجاسة ، وفى الحلال والحرام ، وفى الأخلاق ، ولم يجرِّدوا الشدة كما فعله الأولون[١] ، ولم يجرِّدوا الرأفة كما فعله الآخرون[٢] ؛ بل عاملوا أعداء الله بالشدة ، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة ، وقالوا : فى المسيح ما قاله سبحانه وتعالى ، وما قاله المسيح والحواريون ، لا ما ابتدعه الغالون ، والجافون .

• وقد أخبر الحواريون عن خاتم المرسلين : أنه يبعث من أرض اليمن ، وأنه يبعث بقضيب الأدب ، وهو السيف .

وأخبر المسيح : أنه يجئ بالبينات والتأويل ، وأن المسيح جاء بالأمثال ، وهذا باب يطول شرحه .

• وإنما نبه الداعى لعظيم ملته وأهله ، لما بلغنى ماعنده من الديانة والفضل ، ومحبة العلم وطلب المذاكرة . ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسى : شاكراً من الملك ، من رفقه ولطفه ، وإقباله عليه ، وشاكراً من القسيسين ونحوهم .

---

(١) يعنى اليهود .

(٢) يعنى النصارى .

• ونحن قوم نحب الخير لـكل أحد ؛ ونحب أن يجمع الله لـكم خير الدنيا والآخرة ؛ فإن أعظم ماعُبد الله به نصيحةُ خلقه ؛ وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين . ولا نصيحة أعظمُ من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ؛ فإنه لا بد للعبد من لقاء الله ، ولا بد أن الله يحاسب عبده ؛ كما قال تعالى :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾(١) .

وأما الدنيا فأمرها حقير ، وكبيرها صغير ، وغاية أمرها يعود إلى الرياسة والمال . وغاية ذى الرياسة أن يكون كفرعون . الذى أغرقه الله فى اليمّ انتقاماً منه . وغاية ذى المـال أن يكون كقارون . الذى خسف الله به الأرض ؛ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة لمـا آذى نبى الله موسى .

• وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين ، كلها تأمر بعبادة الله والتجرد للدار الآخرة ، والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا . ولمـا كان أمر الدنيا خسيساً ، رأيت أن أعظم مايهدى لعظيم قومه : المفاتحة فى العلم والدين بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله ؛ والـكلام

---

(١) الأعراف : ٦ .

فى الفروع مبني على الأصول . وأنتم تعلمون أن دين الله لا يكون بهوى النفس ، ولا بعادات الآباء وأهل المدنية ؛ وإنما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل ، وفى ما اتفق الناس عليه وما اختلفوا فيه ، ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى ، بالاعتقاد الصحيح ، والعمل الصالح ، وإن كان لا يمكن الإنسان أن يظهر كل ما فى نفسه لكل أحد ، فينتفع هو بذلك القدر .

● وإن رأيتُ من الملك رغبة فى العلم والخير كاتبته وجاوبته عن مسائل يسألها ، وقد كان خطر لى أن أجىء إلى قبرص لمصالح فى الدين والدنيا ، لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله ؛ فإن الملك وقومه يعلمون أن الله قد أظهر من معجزات رسله عامة ومحمد خاصة ما أيَّدَ به دينه ، وأذل الكفار والمنافقين .

[شيخ الإسلام يحارب المغول]

● ولما قدم مقدم المغول غازان(١) وأتباعه إلى دمشق(٢) وكان

---

(١) غازان أو (قازان) قائد من قواد المغول .

(٢) من حكمة الله : أن شيخ الإسلام الذى فر به أبوه وهو طفل من العراق من وجه التتار ، يلتقى بهم ويحاربهم وهو كبير فى الشام .

قد انتسب إلى الإسلام ، لـكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه ، حيث لم يلتزموا دين الله .

وقد اجتمعت به وبأمرائه ، وجرى لى معهم فصول يطول شرحها ؛ لا بد أن تـكون قد بلغت الملك .

فأذله الله وجنوده لنا ، حتى بقينا نضربهم بأيدينا ، ونصرخ فيهم بأصواتنا ، وكان معهم صاحب سيس مثل أصغر غلام يكون ، حتى كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ عليه ويشتمه ، وهو لا يجترئ أن يجاوبه ، حتى أن وزراء غازان ذكروا ماينم عليه من فساد النية له . وكنت حاضراً لما جاءت رسلكم إلى ناحية الساحل ، وأخبرنى التتار بالأمر الذى أراد صاحب سيس أن يدخل بينكم وبينه فيه ، حيث مناكم بالغرور ، وكان التتار من أعظم الناس شتيمة لصاحب سيس وإهانة له ، ومع هذا فإنا كنا نعامل أهل ملتكم بالإحسان إليهم ، والذب عنهم .

● وقد عرف النصارى كلهم أنى لما خاطبت التتار فى إطلاق الأسرى وأطلقهم غازان وقطلوشاه ، وخاطبت مولاى فيهم ، فسمح بإطلاق المسلمين قال لى : لـكن معنا نصارى أخذناهم من القدس فهؤلاء لا يطلقون ، فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى

الذين هم أهل ذمتنا فإنا نفتكهم ، ولا ندع أسيراً ، لامن أهله الملة ولا من أهل الذمة ، وأطلقنا من النصارى من شاء الله — فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

وكذلك السبي الذى بأيدينا من النصارى ، يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم ؛ كما أوصانا خاتم المرسلين ، حيث قال فى آخر حياته : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » قال الله تعالى فى كتابه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾(١) .

• ومع خضوع التتار لهذه الملّة ، وانتسابهم إلى هذه الملة ، فلم نخادعهم ، ولم ننافقهم ؛ بل بيّنا لهم ماهم عليه من الفساد والخروج عن الإسلام ، الموجب لجهادهم ، وأن جنود الله المؤيَّدة ، وعساكره المنصورة ، المستقرة بالديار الشامية والمصرية ، مازالت منصورة على من ناوأها ، مظفَّرة على من عاداها .

وفى هذه المدة لما شاع عند العامة أن التتار مسلمون ، أمسك العسكر عن قتالهم : فقتل منهم بضعة عشر ألفاً ، ولم يقتل من المسلمين مائتان .

---

(١) الإنسان : ٨ .

فلما انصرف العسكر إلى مصر وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد وعدم الدين ، خرجت جنود الله ، وللأرض منها وئيد ، قد ملأت السهل والجبل ، فى كثرة وقوة وعُدة وإيمان وصدق ، قد بهرت العقول والألباب : محفوظة بملائكة الله ، التى مازال يُمد بها الأمة الحنيفية المخلصة لبارئها ؛ فانهزم العدو بين أيديها ، ولم يقف لمقابلتها .

ثم أقبل العدو ثانياً ، فأرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيل ؛ وانصرف خاسئاً ، وهو حسير ، وصدق الله وعده ، ونصر عبده ؛ وهو الآن فى البلاء الشديد ، والتمكيس العظيم ، والبلاء الذى أحاط به .

والإسلام فى عز متزايد ، وخير مترافد ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة فى رأس كل مائة سنة من يجدّد لها أمر دينها » .

• وهذا الدين فى إقبال وتجديد ، وأنا ناصح للملك وأصحابه ، والله الذى لا إله إلا هو ، الذى أنزل التوراة ، والإنجيل والفرقان .

• ويعلم الملك أن وفد نجران ، وكانوا نصارى كلهم فيهم

الأسقف وغيره ، لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام ، خاطبوه فى أمر المسيح وناظروه ، فلما قامت عليهم الحجة جعلوا يراوغون ، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى المباهلة ، كما قال :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾[١] .

فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك استشوروا بينهم ، فقالوا : تعلمون أنه نبي ، وأنه ما باهل أحد نبياً فأفلح ، فأدّوا إليه الجزية ، ودخلوا فى الذمة ، واستعفوا من المباهلة .

● وكذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كتابه إلى قيصر ، الذى كان ملك النصارى بالشام والبحر إلى قسطنطينية ، وغيرها ، وكان ملكا فاضلا ، فلما قرأ كتابه وسأل عن علامته عرف أنه النبي الذى بشّر به المسيح ، وهو الذى كان وعد الله به إبراهيم فى ابنه إسماعيل ،

---

(١) آل عمران : ٦١ .

وجعل يدعو قومه النصارى إلى متابعته ، وأكرم كتابه ، وقبَّله ، ووضعه على عينيه ، وقال : وددت أنى أخلص إليه حتى أغسل عن قدميه ، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه .

• وأما النجاشى ملك الحبشة النصرانى ، فإنه لما بلغه خبر النبى صلى الله عليه وسلم من أصحابه الذين هاجروا إليه ، آمن به وصدَّقه ، وبعث إليه ابنه وأصحابه مهاجرين ، وصلَّى النبى صلى الله عليه وسلم عليه لما مات ، ولما سمع سورة « كهيعص » بكى ، ولما أخبروه عما يقولون فى المسيح ، قال : « والله مايزيد عيسى على هذا مثل هذا العود » وقال: «إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»

• وكانت سيرة النبى صلى الله عليه وسلم : أن من آمن بالله وكتبه ورسله من النصارى ، صار من أمته ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وكان له أجران : أجر على إيمانه بالمسيح ، وأجر على إيمانه بمحمد .

ومن لم يؤمن به من الأمم فإن الله أمر بقتاله ، كما قال فى كتابه : ﴿قَاتِلوا الذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَومِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ولاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(١) .

• فمن كان لايؤمن بالله ، بل يسب الله ، ويقول : « إنه ثالث ثلاثة ، وإنه صلب ، ولا يؤمن برسله ، بل يزعم أن الله حُمِل وَوُلد ، وكان يأكل ، ويشرب ويتغوَّط ، وينام ، هو الله ، ابن الله ، وأن الله أو ابنه ، حلَّ فيه ، وتدرعه ، ويجحد ما جاء به محمد خاتم المرسلين ، ويحرِّف نصوص التوراة والإنجيل .

• فإن في الأناجيل الأربعة من التناقض والاختلاف بين ما أمر الله به وأوجبه - مافيها ، ولا يدين الحق . ودين الحق : هو الإقرار بما أمر الله به وأوجبه ، من عبادته ، وطاعته ، ولا يحرم ما حرم الله ورسوله ، من والدم والميتة ولحم الخنزير ، الذى مازال حراماً ، من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ما أباحه نبي قط .

بل علماء النصارى يعلمون أنه محرم ، ومايمنع بعضهم من إظهار ذلك إلا الرغبة والرهبة . وبعضهم يمنعه العناد والعادة ونحو ذلك .

ولا يؤمنون باليوم الآخر ، لأن عامتهم وإن كانوا يقرون بقيامة الأبدان لكنهم لايقرون بما أخبر الله به من الأكل والشرب

---

(١) التوبة : ٢٩ .

واللباس والنكاح، والنعيم والعذاب فى الجنة والنار، بل غاية مايقرون به من النعيم السماع والشم .

ومنهم متفلسفة ، ينكرون معاد الأجساد ، وأكثر علمائهم زنادقة ، وهم يضمرون ذلك ، ويسخرون بعوامهم ، لاسيما بالنساء والمترهبين منهم ؛ لضعف العقول . فمن هذا حاله فقد أمر الله رسوله بجهاده حتى يدخل فى دين الله ، أو يؤدى الجزية ـ وهذا دين محمد صلى الله عليه وسلم .

• ثم المسيح صلوات الله عليه لم يأمر بجهاد ، لاسيما بجهاد الأمة الحنيفية ، ولا الحواريون بعده .

فيأيها الملك ، كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحريم ، وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسله ! ؟

[أسرى . . . وأسرى]

• ثم أما يعلم الملك : أن بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان مالا يحصى عددهم إلا الله ، ومعاملتنا فيهم معروفة ؛ فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التى لا يرضى بها ذو مروءة ، ولا ذو دين !

لست أقول عن الملك وأهل بيته، ولا إخوته؛ فإن أبا العباس شاكر للملك ولأهل بيته كثيراً، معترف بما فعلوه معه من الخير، وإنما أقول عن عموم الرعية. أليس الأسرى فى رعية الملك! أليست عهود المسيح، وسائر الأنبياء توصى بالبر والإحسان. فأين ذلك؟!

● ثم إن كثيراً منهم إنما أُخذوا غدراً، والغدر حرام فى جميع الملل والشرائع والسياسات.

فكيف تستحلون أن تستولوا على من أخذ غدراً أفتأمنون مع هذا أن يقابلكم المسلمون ببعض هذا؟ وتكونون مغدورين، والله ناصرهم ومعينهم، لاسيما فى هذه الأوقات، والأمة قد امتدت للجهاد، واستعدت للجلاد، ورغب الصالحون وأولياء الرحمن فى طاعته، وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد، وقد ظهر بعض أثرهم، وهم فى ازدياد.

[الفدائيون]

● ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية، الذين يغتالون الملوك فى فرشها، وعلى أفراسها: من قد بلغ الملكَ خبرهم قديماً وحديثاً، وفيهم الصالحون، الذين لايرد الله دعواتهم، ولا يخيب طلباتهم،

الذين يغضب الرب لغضبهم ، ويرضى لرضاهم .

وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم إلى المسلمين : لما غضب المسلمون عليهم، حاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف ، فكيف يحسن أيها الملك بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة ، التي لا يرضاها عاقل ، لا مسلم ولا معاهد !

هذا ، وأنت تعلم أن المسلمين لا ذنب لهم أصلا ، بل هم المحمودون على ما فعلوه . فإن الذى أطبقت العقلاء على الإقرار بفضله ، هو دينهم ـ حتى الفلاسفة أجمعوا على أنه لم يطرق العالم دين أفضل من هذا الدين ! فقد قامت البراهين على وجوب متابعته .

ثم هذه البلاد ما زالت بأيديهم . الساحل ، بل وقبرص أيضاً ؛ ما أُخذت منهم إلا من أقل من ثلثمائة سنة ، وقد وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ، فما يؤمن الملك أن هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد ، كما ينتقم لغيرهم ! وما يؤمنه أن تاخذ المسلمين حمية إسلامهم فينالوا فيها ما نالوا من غيرها ، ونحن إذا رأينا من الملك وأصحابه ما يصلح عاملناهم بالحسني ـ وإلا فمن بغى عليه لينصرنه الله .

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين .

وأنا ما غرضى الساعة إلا مخاطبتكم بالتى هى أحسن ، والمعاونة على النظر فى العلم ، واتباع الحق ، وفعل مايجب . فإن كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم ، وحقائق الأديان ، ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلدين الذين لا يسمعون ولا يعقلون ؛ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا !

• وأصل ذلك أن تستعين بالله ، وتسأله الهداية ، وتقول : اللهمَّ أرنى الحق حقاً ، وأعنّى على اتباعه ، وأرنى الباطل باطلا ، وأعنى على اجتنابه ، ولا تجعله مستبهماً علىّ فأتبع الهوى .

وقل : اللهم ربَّ جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

• والكتاب لا يحتمل البسط أكثر من هذا ، لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه فى الدنيا والآخرة .

وهما شيئان : أحدهما ـ له خاصة ، وهو معرفته بالعلم والدين ،

وانكشاف الحق وزوال الشبهة ، وعبادة الله كما أمر ؛ فهذا خير له من ملك الدنيا بحذافيرها ، وهو الذى بُعث به المسيح وعلمه الحواريين.

الثانى ـ له وللمسلمين ، وهو مساعدته للأسرى الذين فى بلاده ، وإحسانه إليهم ، وأمر رعيته بالإحسان إليهم ، والمعاونة لنا على خلاصهم ؛ فإن فى الإساءة إليهم دركا على الملك فى دينه ودين الله تعالى ودركا من جهة المسلمين .

وفى المعاونة على خلاصهم حسنة له فى دينه ودين الله تعالى وعند المسلمين ـ وكان المسيح أعظم الناس توصيةً بذلك .

• ومن العجب كل العجب : أن يأسر النصارى قوماً غدراً أو غير غدر ، ولم يقاتلوهم ، والمسيح يقول : « من لطمك على خدّك الأيمن ، فأدِرْ له خدّك الأيسر ، ومن أخذ رداءك أعطه قميصك » .

وكلما كثرت الأسرى عندكم كان أعظم لغضب الله ، وغضب عباده المسلمين ! فكيف يمكن السكوت على أسرى المسلمين فى قبرص ! سيما وعامة هؤلاء الأسرى قوم فقراء ، وضعفاء ، ليس لهم من يسعى فيهم .

وهذا أبو العباس مع أنه من عُبَّاد المسلمين ، وله عبادة ، وفقر ،

وفيه مشيخة ، ومع هذا ، فما كاد يحصل له فداؤه إلا بالشدة .

ودين الإسلام يأمرنا أن نعين الفقير ، والضعيف ؛ فالملك أحق أن يساعد على ذلك من وجوه كثيرة ـ لاسيما والمسيح يوصى بذلك فى الإنجيل ، ويأمر بالرحمة العامة ، والخير الشامل كالشمس والمطر .

والملك وأصحابه إذا عاونونا على تخليص الأسرى ، والإحسان إليهم ، كان الحظ الأوفر لهم فى ذلك فى الدنيا والآخرة .

• أما فى الآخرة : فإن الله يثيب على ذلك ويأجر عليه ، وهذا مما لا ريب فيه عند العلماء المسيحيين الذين لا يتبعون الهوى ، بل كل من اتقى الله وأنصف علم أنهم أسروا بغير حق ، لا سيما من أخذ غدراً ، والله تعالى لم يأمر ، ولا المسيح أمر ، ولا أحد من الحواريين ، ولا من اتبع المسيح على دينه ، لا بأسر أهل ملة إبراهيم ولا بقتلهم . وكيف وعامة النصارى يقرون بأن محمداً رسول الأميين ، فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين اتبعوا رسولهم ؟؟ .

• « فإن قال قائل » : هم قاتلونا أول مرة ؟

قيل » : هذا باطل ، فيمن غدرتم به ، ومن بدأتموه بالقتال .

وأما من بدأكم منهم فهو معذور ، لأن الله تعالى أمره بذلك

ورسوله ، بل المسيح والحواريون أخذ عليهم المواثيق بذلك .

ولا يستوى من عمل بطاعة الله ورسوله ، ودعا إلى عبادته ودينه وأقر بجميع الكتب والرسل ، وقاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله ـ ومن قاتل فى هوى نفسه وطاعة شيطانه ، على خلاف الله ورسوله .

• وما زال فى النصارى من الملوك والقسيسين ، والرهبان والعامة من له مزية على غيره فى المعرفه والدين ، فيعرف بعض الحق ، وينقاد لكثير منه ، ويعرف من قدر الإسلام وأهله مايجهله غيره ، فيعاملهم معاملة تكون نافعة له فى الدنيا والآخرة ، ثم فى فكاك الأسير . وثواب العتق من كلام الأنبياء والصديقين ما هو معروف لمن طلبه ، فمهما عمل الملك معهم وجد ثمرته .

• وأما فى الدنيا : فإن المسلمين أقدر على المكافأة فى الخير والشر من كل أحد .

ومن حاربوه ، فالويل كل الويل له .

والملك لابد أن يكون سمع السِّير ، وبلغه أنه مازل فى المسلمين النفر القليل ، منهم من يغلب أضعافا مضاعفة من النصارى ، وغيرهم ،

فكيف إذا كانوا أضعافهم ؟ وقد بلغه الملاحم المشهورة فى قديم الدهر وحديثه .

مثل : أربعين ألفاً يغلبون من النصارى أكثر من أربعمائة ألف ، أكثرهم فارس .

وما زال المرابطون بالثغور مع قلتهم ، واشتغال ملوك الإسلام عنهم يدخلون بلاد النصارى ، فكيف وقد منّ الله تعالى على المسلمين باجتماع كلمتهم ، وكثرة جيوشهم ، وبأس مقدّميهم ، وعلوّ هممهم ، ورغبتهم فيما يقرب إلى الله تعالى ! واعتقادهم أن الجهاد أفضل الأعمال المطوعة ، وتصديقهم بما وعدهم نبيهم ، حيث قال : « يعطَى الشهيد ست خصال : يُغفر له بأول قطرة من دمه ، ويرى مقعده فى الجنة ، ويكسى حلة الإيمان ، ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين ، ويوقى فتنة القبر ، ويؤمن من الفزع الأكبر يوم القيامة .

[كيف كان يحارب المسلمون]

• ثم إن فى بلادهم من النصارى أضعاف ما عندكم من المسلمين فإن فيهم من رءوس النصارى من ليس فى البحر مثلهم إلا قليلا .

وأما أسراء المسلمين ، فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون ، ولا من ينتفعون به ، وإنما نسعى فى تخليصهم لأجل الله تعالى ؛ رحمة لهم ، وتقربا إليه يوم يجزى الله المصدِّقين ، ولا يضيع أجر المحسنين .

• وأبو العباس ، حامل هذا الكتاب ، قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا ، واستعطف قلوبنا إليه ؛ فلذلك كاتبت الملك لما بلغتني رغبته فى الخير ، وميله إلى العلم والدين ، وأنا من نواب المسيح ، وسائر الأنبياء فى مناصحة الملك وأصحابه ، وطلب الخير لهم .

فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، يريدون للخلق خير الدنيا والآخرة ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويدعونهم إلى الله ، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم .

وإن كان الملك قد بلغه بعض الأخبار التى فيها طعن على بعضهم ،

أو طعن على دينهم ؛ فإما أن يكون الخبر كاذباً ، أو ما فهم التأويل ، وكيف صورة الحال ؛ وإن كان صادقاً عن بعضهم بنوع من المعاصى ، والفواحش والظلم ؛ فهذا لابد منه فى كل أمة ، بل الذى يوجد فى المسلمين من الشر أقل مما فى غيرهم بكثير ، والذى فيهم من الخير لايوجد مثله فى غيرهم .

• والملك ، وكل عاقل يعرف أن أكثر النصارى خارجون عن وصايا المسيح والحواريين .

ورسائل بولص وغيره من القديسين ، وإن كان أكثر ما معهم من النصرانية شرب الخمر ، وأكل الخنزير ، وتعظيم الصليب ، ونواميس مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن بعضهم يستحل بعض ماحرّمته الشريعة النصرانية ؛ هذا فيما يقرون به .

وأما مخالفتهم لما لايقرون به ، فكلهم داخل فى ذلك ، بل قد ثبت عندنا عن الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن المسيح عيسى ابن مريم ، ينزل عندنا بالمنارة البيضاء فى دمشق واضعاً يده على منكبي ملَكَين ؛ فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، ويقتل مسيح الضلالة الأعور الدجال ، الذى يتبعه اليهود ، ويسلط المسلمون على

اليهود ، حتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم ، هـذا يهودى ورائى فاقتله ، وينتقم الله للمسيح ابن مريم ، مسيح الهدى ، من اليهود ما آذوه وكذبوه لما بُعث إليهم .

وأما ما عندنا فى أمر النصارى ، وما يفعل الله بهم من إدالة[1] المسلمين عليهم ، وتسليطه عليهم ؛ فهذا مما لا أخبر به الملك لئلا يضيق صدره ، ولـكن الذى أنصحه به : أن كل من أسلف إلى المسلمين خيراً ، ومال إليهم . كانت عاقبته معهم حسنة ، بحسب ما فعله من الخير ؛ فإن الله يقول :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهْ ﴾[2] .

• والذي أختم به الـكتاب الوصية بالشيخ أبى العباس ، وبغيره من الأسرى ، والمساعدة لهم ، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن ، والامتناع من تغيير دين واحد منهم ، وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله ، ونحن نجزى الملك على ذلك بأضعاف مافى نفسه .

---

(١) الإدالة : الغلبة .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

والله يعلم أنى قاصد للملك الخير ؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك ، وشرع لنا أن نريد الخير لـكل أحد ، ونعطف على خلق الله ، وندعوهم إلى الله ، وإلى دينه ، وندفع عنهم شياطين الإنس والجن .

والله المسئول : أن يعين الملك على مصلحته ، التى هى عند الله المصلحة ، وأن يخير له من الأقوال ماهو خير له عند الله ، ويختم له بخاتمة خير .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على أنبيائه المرسلين ؛ ولا سيما محمد خاتم النبيين والمرسلين والسلام عليهم أجمعين .

دليل الرسالة

الرسالة

الموضوع	صفحة

رقم الايداع ٢٥٧٠ / ١٩٧٩